الترجيح بالسياق القرآني في التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي "نماذج تطبيقية من سورة آل عمران"

الباحث/ أبوبكر محمود عبد الحكم محمود

الملخص:

إن القرآن كلام الله الذي أنزله ليُعمل به ويكون منهاج حياة للناس، ولا شك أن قراءة القرآن قربة وطاعة من أحب الطاعات إلى الله، لكن مما لا شك فيه أيضًا أن القراءة بغير فهم ، ولا تدبر ليست هي المقصودة .

إن الله دعانا لتدبر كتابه ، وتأمل معانيه وأسراره قال تعالى : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله ، لأنه يراه يصدق بعضه بعضا، ويوافق بعضه بعضا، فترى الحكم والقصة والاخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع كلها متوافقة متصادقة لا ينقض بعضها بعضا، فبذلك يعلم كمال القرآن ، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور،..".

ولقد سلك العلماء طرقًا لفهم معانى كلام الله عز وجل ، وأحسنها " أن يفسر القرآن بالقرآن؛ فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر ، وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر ....

ويعد السياق القرآني من تفسير القرآن بالقرآن سواء كان ذلك في سياق الآية ، أو المقطع ، أو السورة نفسها ، أو سياق القرآن عامة ، حتى يتبين للجميع أن القرآن جملة واحدة لا ينفك بعضه عن بعض .

وقد اشتملت هذه الدراسة على مقدمة ومطلبين:

المطلب الأول:- مفهوم السياق في اللغة

المطلب الثاني: المناسبات وأثرها في سورة آل عمران (دراسة تطبيقية)

ملخص الدراسة باللغة الانجليزية

'iina alquran kalam allah aladhi 'anzalah lyueml bih waminhaj hayat alnaasi, wala shaka 'ana qira'at alquran qurbat

wataeat min 'ahabi altaaeat 'iilaa allahi, walakin mimaa la shaka fih 'aydan 'ana alqira'at bighayr fahm , wala tudbir laysat hi hi muhadada . 'iina allah daeana litudabir kitabahu, watamul maeanih wa'asrarah qal: 'afala yatadabarun alquran 'am ealaa qulub 'aqfaluha" wamin fawayid altadabur likitab allah: 'anah yasil 'iilaa aleabd 'iilaa alyaqin waleilm kalam mutlaq wallahu, li'anah yusadiq baedah bieada, watanazal ean baedih bieada, fataraa. walqisat walakhibarat tuead fi alquran fi eidat mawadie kamilatan sadiqat la yanqad baed bieda, fabidhalik yaelam kamal alqurani, 'akhfaa min eind man 'ahat eilmah bijamie al'amuri,.."

walaqad salak aleulama' trqan lifahm mueanaa kalam allah eaza wajala , wa'ahsanuha " 'an yakhudh alquran bialquran ; ma 'ajmal fi makan yumkin qad fasir fi akhar mawdie , wama akhtasar min makan faqad wudie fi mawdie akhar .... bima fi dhalik alsiyaq alquraniu min tafsir alquran bialquran sawa' kan dhalik fi siaq alayat, 'aw almaqtaei, 'aw suratan linafsihi, 'aw siaq alquran aleami, hataa yatabayan liljamie 'ana alquran yajib 'an la yafaka baeduh ean baedi. waqad tatadaman hadhih aldirasat ealaa almutaqadimat wamatlabina: almatlab al'uwli:- mafhum alsiyaqat fi allugha almatlab althaani: almunasibat wa'atharuha fi surat al eimran (dirasat tatbiqiatun

مقدمـة

الحمد لله الذى شرع لنا دينًا قويمًا وهدانا إليه صراطًا مستقيمًا ، وجعلنا من أهله تعلمًا وتعليمًا نحمده سبحانه ونثنى عليه بما هو أهله سبحانه وتعالى.

رفع من أراد به خيراً بالعلم والإيمان ، وخذل المعرضين عن الهدى وعرضهم لكل هلاك وهوان . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الكريم المنان ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك . وبعد،،،،

إن القرآن كلام الله الذي أنزله ليُعمل به ويكون منهاج حياة للناس، ولا شك أن قراءة القرآن قربة وطاعة من أحب الطاعات إلى الله، لكن مما لا شك فيه أيضًا أن القراءة بغير فهم ، ولا تدبر ليست هي المقصودة ، بل المقصود الأكبر أن يقوم القارئ بتحديق ناظر قلبه إلى معاني القرآن ، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وإجالة الخاطر في أسراره وحِكَمه.

إن الله دعانا لتدبر كتابه ، وتأمل معانيه وأسراره قال تعالى : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (١) وقد نعى القرآن على أولئك الذين لا يتدبرون القرآن ولا يستنبطون معانيه ، فقال تعالى أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا . وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)

"ومن لم يكن له علم وفهم وتقوى وتدبر لم يدرك من لذة القرآن شيئا"(٣)

" ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله ، لأنه يراه يصدق بعضه بعضا، ويوافق بعضه بعضا، فترى الحكم والقصة والاخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع كلها متوافقة متصادقة لا ينقض بعضها بعضا، فبذلك يعلم كمال القرآن ، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور،.."(٤).

ولقد سلك العلماء طرقًا لفهم معانى كلام الله عز وجل ، وأحسنها " أن يفسر القرآن بالقرآن؛ فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر ، وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر ... (٥).

ويعد السياق القرآني من تفسير القرآن بالقرآن سواء كان ذلك في سياق الآية ، أو المقطع ، أو السورة نفسها ، أو سياق القرآن عامة ، حتى يتبين للجميع أن القرآن جملة واحدة لا ينفك بعضه عن بعض .

أهمية البحث

تظهر أهمية الموضوع من عدة جوانب ، أهمها :

١. يُعد السياق من تفسير القرآن بالقرآن .

٢. من أشرف العلوم لتعلقه بكتاب الله تعالى .

٣. أنه أصل معتبر في تفسير النبي –صلى الله عليه وسلم– والسلف الصالح .

٤. يُعد السياق من أعظم القرائن في الترجيح ، وحل الخلاف و الإشكال بين العلماء.

٥. يُعين السياق على معرفة أسرار كتاب الله تعالى وتشريعاته .

أهداف البحث

١. أهمية تفسير " الوسيط" وعلو قدره عند العلماء .وخاصة أنه من التفاسير المعاصرة

٢. الرغبة الصادقة في الصلة المباشرة بكتاب الله. تعالى .

٣. أن هذا الموضوع يعتبر منهجاً عظيماً في التفسير؛ إذ هو دراسة لكتاب الله. تعالى . وفهمه وتفسيره ، وفتح أبواب جديدة في تدبر آياته، وتأمله، وطول النظر فيه، والوقوف على أسرار بديعة مما ينطوي عليها.

٤. الإسهام في إثراء المكتبة الإسلامية . من خلال تطبيقات العلماء ومناهجهم في التفسير.

٥. خدمة كتاب الله تعالى في إبراز منهج صحيح لفهمه وتدبره .

٦. كون الدراسة التطبيقية لا سيما على تفسير القرآن الكريم كاملاً ومن مفسر كبير معاصر كالإمام الأكبر محمد سيد طنطاوي مما يصقل الباحث علمياً ويكون له ملكة تفسيرية .

٧. أيضاً كل ما ذكر من أهمية البحث .

الدراسات السابقة

لقد سبقني إلى هذا العمل كثير من الباحثين، واستفدت من أبحاثهم كثيراً، ومن خلال البحث لم أعثر على أيّة دراسة مختصة ، لدراسة علم السياق في التفسير للعلماء القدامى ، وإن ما وجدته عبارة عن أبحاث لرسائل (ماجستير ودكتوراه) تكلمت عن هذا العلم نظرياً ، وتطبيقياً على بعض كتب المفسرين ، وهم قسمان:

أولاً: الدراسات التي سبقت في مجال السياق عامة ، وأذكر منها على سبيل المثال:

١. (السياق وأثره في توجيه المعنى في تفسير الطبري) للباحث/ محمد بنعدة، رسالة دكتوراه من كلية الآداب بجامعة محمد بن عبد الله بالمغرب عام ١٤١٨هـ .

٢. (دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير – دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير) للباحث /عبد الحكيم بن عبد الله القاسم ، رسالة ماجستير ، من كلية أصول الدين ، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٢١هـ

٣. (دلالة السياق) للباحث/ ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي رسالة دكتوراه من كلية اللغة العربية ، بجامعة أم القرى عام ١٤٢٤هـ .

٤. (السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة) للباحث/ سعيد بن محمد الشهراني ، رسالة ماجستير ، من كلية الدعوة وأصول الدين ، بجامعة أم القرى عام ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م

٥. (دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى – عليه السلام) للباحث/ فهد بن شتوي بن عبد المعين الشتوي ، رسالة ماجستير ، من كلية الدعوة وأصول الدين ، بجامعة أم القرى . عام ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

ثانياً : الدراسات السابقة التي تكلمت عن تفسير "الوسيط" خاصة ، أذكر ما عثرت عليه .

١. (منهج محمد سيد طنطاوي في كتابه " التفسير الوسيط للقرآن الكريم ") للباحث/ بنت حاج يحيى، سارينه ، رسالة ماجستير من كلية الدراسات العليا – الجامعة الأردنية ٢٠٠٣م

منهج البحث

اتبعت منهج الاستقراء والاستنباط ، ومن خلال تعريفيهما يتضح المعنى .

– الاستقراء : "هو تصفح أمور جزئية، ليحكم بحكمها على أمر يشمل تلك الجزئيات"(٦) وله أقسام(٧).

– الاستنباط : "استخراج ما خفي المراد به من اللفظ "(٨).

خطة البحث

وقد اشتملت هذه الدراسة على مقدمة وثلاثة مطالب:

المطلب الأول:– مفهوم السياق في اللغة

المطلب الثاني: المناسبات وأثرها في سورة آل عمران (دراسة تطبيقية)

المطلب الأول:– مفهوم السياق في اللغة

أصل المادة: سوق، وردت في المعاجم بمعان مترادفة.

١. قال ابن فارس (٩): أصل الكلمة (سَوُقَ) السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدو الشيء. يقال ساقه يسوقه سوقا. والسيقة: ما استيق من الدواب، وسمى المهر سياقا ويقال سقت إلى امرأتي صداقها، وأسقته. والسوق مشتقة من هذا، لما يساق إليها من كل شيء..." (١٠).

٢. قال الراغب الأصفهاني (١١): (سَوْقُ الإبل: جلبها وطردها، يقال: سُقْتُهُ فَانْسَاقَ، والسَّيِّقَةُ: ما يُسَاقُ من الدّوابّ. وسُقْتُ المهر إلى المرأة، وذلك أنّ مهورهم كانت الإبل...) (١٢)

ثانيا :- مفهوم السياق اصطلاحاً:-

لقد اختلف العلماء في تعريف السياق اصطلاحًا، وسبب الاختلاف أنهم لم ينصوا على تعريفه اصطلاحًا وإنما نصوا على أهميته وبعض آثاره ، واستُنبِط تعريف السياق اصطلاحًا من خلال كلامهم ، وهذه بعض أقوالهم :

أولاً :- أقوال العلماء المتقدمين في بيان فائدة السياق وأثره:

يبين ابن دقيق العيد(١٣) فائدة السياق فيقول: (....السياق والقرائن : فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامه ، وهى المرشدة إلى بيان المجملات ، وتعيين المحتملات...) (١٤).

يوضح ابن دقيق العيد بأن السياق وما يلحق به من قرائن يدل على مراد الله في الآية؛ كما أنه المرشد إلى بيان ما أجمل من النص القرآني ، ويساعد على تعيين الرأي الراجح ، وإزالة اللبس عن الاختلافات والاحتمالات.

أما الإمام الزركشي(١٥)، فإنه نظر إلى السياق على أنه دقة النظر في نظم الكلام، وإن خالف الوضع اللغوي، فقال : (...ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز ولهذا ترى صاحب الكشاف يجعل الذي سيق له الكلام معتمدا حتى كأن غيره مطروح) (١٦).

لكن قول الإمام السيوطي يختلف عن غيره ، فقال : "...وعليه (أي المفسر) بمراعاة المعنى الحقيقي والمجازي ومراعاة التأليف والغرض الذي سيق له الكلام وأن يؤخي بين المفردات... (١٧) .

المطلب الثاني: قواعد الترجيح بالسياق عند فضيلة الإمام الأكبر سيد طنطاوي.

بالاستقراء لكتاب التفسير الوسيط للدكتور سيد طنطاوي يمكن استنباط قواعد الترجيح بالسياق عنده والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: أن القول المعتبر في التفسير هو الموافق للسياق.

ثانياً: يجب حمل كلام الله على المعاني والأوجه اللائقة بالسياق والموافقة لأسلوب القرآن.

ثالثاً: كل تفسير خارج عن دلالات الألفاظ والسياق باطل مردود.

رابعاً: حمل كلام الله على الغالب من عرفه ومعهود استعماله أولى من الخروج به عن ذلك.

سادساً: القول بالاستقلال مقدم على القول بالإضمار، إلا أن يدل السياق على الحذف.

خامساً: توحيد مرجع الضمائر في السياق الواحد أولى من تفريقها.

سابعاً: جميع حذوف القرآن لا تقدر إلا على أكمل الوجوه اللائقة بالسياق.

والأمثلة على هذه القواعد سنذكرها في الجانب التطبيقي إن شاء الله تعالى.

المطلب الثالث: المناسبات وأثرها في سورة آل عمران (دراسة تطبيقية)

١-السياق في قوله تعالى: ﴿الم﴾ (١٨).

ذكر الدكتور طنطاوي السياق في هذه الآية فقال بعد أن ذكر خلاصة موجزة لآراء العلماء في المراد بالحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية: ومما يشهد لصحة هذا الرأي: أن الآيات التي تلى هذه الحروف المقطعة تتحدث عن الكتاب المنزل، وعن كونه معجزة للرسول صلّى الله عليه وسلّم في أغلب المواضع، وأنت ترى هذه الآيات كثيرا ما تتصدر صراحة باسم الإشارة الذي يعود إلى القرآن كما في قوله- تعالى-: الم. ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ. أو ضمنا كما في قوله- تعالى- المص. كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ وأيضا فإن هذه السور التي افتتحت بالحروف المقطعة إذا ما تأملتها من أولها إلى آخرها ترى من أهدافها الأساسية إثبات صحة الرسالة المحمدية عن طريق هذا الكتاب الذي جعله الله- تعالى- معجزة لنبيه صلّى الله عليه وسلّم(١٩).

وقد وافق الدكتور طنطاوي عدداً من المفسرين في بيان هذا السياق، وإن كان هناك اختلاف يسير في العبارة إلا أن الجميع متفقون في المعنى نفسه.

أقوال العلماء في سياق هذه الآية

قال الرازي: " قال المبرد(٢٠) : إن الله تعالى إنما ذكرها احتجاجاً على الكفار، وذلك أن الرسول لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة، فعجزوا عنه؛ أنزلت هذه الحروف تنبيها على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف، وأنتم قادرون عليها، وعارفون بقوانين الفصاحة، فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من البشر. إن التكلم بهذه الحروف، وإن كان معتاداً لكل أحد، إلا أن كونها مسماة بهذه الأسماء لا يعرفه إلا من اشتغل بالتعلم والاستفادة، فلما أخبر الرسول عليه السلام عنها من غير سبق تعلُّم واستفادة؛ كان ذلك إخباراً عن الغيب؛ فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكرها ليكون أول ما يسمع من هذه السورة معجزَة دالَّة على صدقه" (٢١)

وقال الطاهر بن عاشور: " لما كان أول أغراض هذه السورة، الذي نزلت فيه هو قضية مجادلة نصارى نجران حين وفدوا إلى المدينة، وبيان فضل الإسلام على النصرانية؛ لا جرم افتتحت بحروف التهجي، المرموز بها إلى تحدي المكذّبين لهذا الكتاب(٢٢).

وهذا ربطٌ لافتتاحية السورة بغرضٍ من أغراضها، وهذا ما فات على كثير من المفسرين بيانه – في حدود اطلاع الباحث– وهو ربطٌ مهم تظهر به السورة متماسكة ومترابطة من أولها إلى آخرها. لم يذكر صاحب المنار السياق في هذه الآية واكتفى بأن قال:

أَوَّلًا – إِنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ تُقْرَأُ مُقَطَّعَةً بِذِكْرِ أَسْمَائِهَا لَا مُسَمَّيَاتِهَا، فَنَقُولُ: أَلِفْ، لَامْ، مِيمْ، سَاكِنَةَ الْأَوَاخِرِ؛ لِأَنَّهَا غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي تَرْكِيبِ الْكَلَامِ فَتُعْرَبُ بِالْحَرَكَاتِ.

ثَانِيًا – إِنَّ عَدَمَ إِعْرَابِهَا يُرَجِّحُ أَنَّ حِكْمَةَ افْتِتَاحِ بَعْضِ السُّوَرِ الْمَخْصُوصَةِ بِهَا لِلتَّنْبِيهِ لِمَا يَأْتِي بَعْدَهَا مُبَاشَرَةً مِنْ وَصْفِ الْقُرْآنِ وَالْإِشَارَةِ إِلَى إِعْجَازِهِ؛ لِأَنَّ الْمَكِّيَّ مِنْهَا كَانَ يُتْلَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَمِثْلُ هَذِهِ السُّورَةِ وَمَا بَعْدَهَا لِدَعْوَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَيْهِ وَإِقَامَةِ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ بِهِ.

ثَالِثًا – اقْتَصَرَ عَلَى جَعْلِ حِكْمَتِهَا الْإِشَارَةُ إِلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ وَفُنُونِهَا: كَالْفَرَّاءِ، وَقُطْرُبٍ، وَالْمُبَرِّدِ، وَالزَّمَخْشَرِيِّ، وَبَعْضِ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ: كَشَيْخِ الْإِسْلَامِ أَحْمَدَ تَقِيِّ الدِّينِ بْنِ تَيْمِيَّةَ، وَالْحَافِظِ الْمِزِّيِّ، وَأَطَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي بَيَانِهِ وَتَوْجِيهِهِ بِمَا يُرَاجَعُ فِي كَشَّافِهِ، وَفِي تَفْسِيرِ الْبَيْضَاوِيِّ وَغَيْرِهِ.

رَابِعًا – إِنَّ أَضْعَفَ مَا قِيلَ فِي هَذِهِ الْحُرُوفِ وَأَسْخَفَهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْإِشَارَةُ بِأَعْدَادِهَا فِي حِسَابِ الْجُمَّلِ إِلَى مُدَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَوْ مَا يُشَابِهُ ذَلِكَ، وَرَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ حَدِيثًا فِي ذَلِكَ عَنْ

بَعْضِ الْيَهُودِ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ ضَعِيفٌ مِنْ رِوَايَةِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ(٢٣).

خَامِسًا – يَقْرُبُ مِنْ هَذَا مَا عُنِيَ بِهِ بَعْضُ الشِّيعَةِ مِنْ حَذْفِ الْمُكَرَّرِ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ وَصِيَاغَةِ جُمَلٍ مِمَّا بَقِيَ مِنْهَا فِي مَدْحِ عَلِيٍّ الْمُرْتَضَى – كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ – أَوْ تَفْضِيلِهِ وَتَرْجِيحِ خِلَافَتِهِ، وَقُوبِلُوا بِجُمَلٍ أُخْرَى مِثْلِهَا تَنْقُضُ ذَلِكَ كَمَا وَضَّحْنَاهُ فِي مَقَالَاتِنَا (الْمُصْلِحُ وَالْمُقَلِّدُ) .

سَادِسًا – إِنَّهُ لَا يَزَالُ يُوجَدُ فِي النَّاسِ – حَتَّى عُلَمَاءِ التَّارِيخِ وَاللُّغَاتِ مِنْهُمْ – مَنْ يَرَى أَنَّ فِي هَذِهِ الْحُرُوفِ رُمُوزًا إِلَى بَعْضِ الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ سَتُظْهِرُهُ الْأَيَّامُ(٢٤).

وقد ذكر عدد من المفسرين في بيان هذا السياق، وإن كان هناك اختلاف يسير في العبارة إلا أن الجميع متفقون في المعنى نفسه.

أثر السياق:

من خلال ما سبق بيانه يتضح أن المعنى المراد من هذه الأحرف المقطعة هو التحدي الذي واجه القرآن الكريم به المشركين وعجزوا عن الإتيان بمثله، وهناك إشارة إلى أن تحديهم جاء وما يتناسب مع المجال الذي برعوا فيه، وهو البلاغة والفصاحة.

ومن خلال ما سبق بيانه يتضح أن افتتاح السور بالحروف المقطعة لا يخرج عن غرض التحدي للمكذبين بالقرآن الكريم، ولكنه يختلف في مناسبة التحدي لموقف ما.

فافتتاح سورة البقرة بالحروف المقطعة كان تحدياً عاماً لكل مكذّبٍ للقرآن، بينما هنا جاء التحدي موجهاً بالدرجة الأولى إلى وفد نجران الذين نزلت الآيات في شأنهم، ثم إلى بقية المكذبين من مشركي العرب، ثم اليهود.

وبالنظر لما سبق نجد أن فضيلة الإمام اتفق مع المفسرين في سياق الآية، ولم يختلف أحد في سياقها إلا اختلافا لفظيا فقط.

٢. السياق في قوله تعالى:﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (٢٥)

لم يذكر الدكتور طنطاوي السياق في هذه الآية، لكنه ذكره ضمنا وبعد أن بين– سبحانه– أنه هو وحده المستحق للعبودية، أتبع ذلك ببيان بعض مظاهر فضله ورحمته، ولكني سأذكر بعض ما ذكره السابقون في سياق هذه الآية للفائدة.

أقوال العلماء في سياق هذه الآية

قال الرازي: "أَنَّ عِيسَى مَا كَانَ حَيًّا قَيُّومًا لِأَنَّهُ وُلِدَ، وَكَانَ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيُحْدِثُ، وَالنَّصَارَى زَعَمُوا أَنَّهُ قُتِلَ وَمَا قَدَرَ عَلَى دَفْعِ الْقَتْلِ عَنْ نَفْسِهِ، فَثَبَتَ أَنَّهُ مَا كَانَ حَيًّا قَيُّومًا، وَذَلِكَ

يَقْتَضِي الْقَطْعَ وَالْجَزْمَ بِأَنَّهُ مَا كَانَ إِلَهًا، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ جَامِعَةٌ لِجَمِيعِ وُجُوهِ الدَّلَائِلِ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ النَّصَارَى فِي التَّثْلِيثِ(٢٦)."

– وقال البقاعي: ومناسبه هذا الأول بالابتدائية لآخر ما قبلها أنه لما كان آخر البقرة في الحقيقة آية الكرسي وما بعدها إنما هو بيان، لأنها أوضحت أمر الدين بحيث لم يبق وراءها مرمى لمتنعت، أو تعجب من حال من جادل في الإلهية أو استبعد شيئاً من القدرة ولم ينظر فيما تضمنته هذه الآية من الأدلة مع وضوحه، أو إشارة إلى الاستدلال على البعث بأمر السنابل في قالب الإرشاد إلى ما ينفع في اليوم الذي نفى فيه نفع البيع والخلة والشفاعة من النفقات، وبيان بعض ما يتعلق بذلك، وتقرير أمر ملكه لما منه الإنفاق من السماوات والأرض، والإخبار بإيمان الرسول وأتباعه بذلك، وبأنهم لا يفرقون بين أحد من الرسل المشار إليهم في السورة، وبصدقهم في التضرع برفع الأثقال التي كانت على من قبلهم من بني إسرائيل وغيرهم، وبالنصرة على عامة الكافرين؛ لما كان ذلك على هذا الوجه ناسب هذا الاختتام غايه المناسبة ابتداء هذه السورة بالذي وقع الإيمان به سبحانه وتعالى(٢٧).

وقال الطاهر بن عاشور: جُمْلَةً مُعْتَرِضَةً أَوْ حَالِيَّةً، رَدًّا عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَعَلَى النَّصَارَى خَاصَّةً. وَأُتْبِعَ بِالْوَصْفَيْنِ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لِنَفْيِ اللَّبْسِ عَنْ مُسَمَّى هَذَا الِاسْمِ، وَالْإِيمَاءِ إِلَى وَجْهِ انْفِرَادِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَأَنَّ غَيْرَهُ لَا يَسْتَأْهِلُهَا لِأَنَّهُ غَيْرُ حَيٍّ أَوْ غَيْرُ قَيُّومٍ، فَالْأَصْنَامُ لَا حَيَاةَ لَهَا، وَعِيسَى فِي اعْتِقَادِ النَّصَارَى قَدْ أُمِيتَ، فَمَا هُوَ الْآنَ بِقَيُّومٍ وَلَا هُوَ فِي حَالِ حَيَاتِهِ بِقَيُّومٍ عَلَى تَدْبِيرِ الْعَالَمِ، وَكَيْفَ وَقَدْ أُوذِيَ فِي اللَّهِ، وَكُذِّبَ، وَاخْتَفَى مِنْ أَعْدَائِهِ. (٢٨)

أثر السياق.

وردت هذه الآية في سياق الرد على النصارى وعقيدتهم الفاسدة وقولهم بألوهية المسيح عليه السلام الذي مات حسب زعمهم، فجاءت الآيات توضح أن الله هو الذي لا إله إلا هو، وناسب السياق الآية بأن أتت الفاصلة بوصف الإله الذي من صفاته الحياة على عكس ما وصفوا به عيسى عليه السلام وهو القائم على تدبير الخلق ومصالحهم بخلاف زعمهم في عيسى، ووردت الفاصلة بأسلوب الحصر الذي أفاد قصر الألوهية على الله وحده.

كما أثبت السياق للنصارى أن عدم حياة عيسى وقومته يستدعى ألا يكون

٣. السياق في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٢٩)

ذكر الدكتور طنطاوي السياق في هذه الآية فقال: وبعد أن بين- سبحانه- أنه هو وحده المستحق للعبودية، أتبع ذلك ببيان بعض مظاهر فضله ورحمته فقال: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ والكتاب- كما يقول الراغب- في الأصل مصدر، ثم سمى المكتوب فيه كتابا(٣٠).

وقد وافق الدكتور طنطاوي عدداً من المفسرين في بيان هذا السياق، وإن كان هناك اختلاف يسير في العبارة إلا أن الجميع متفقون في المعنى نفسه.

أقوال العلماء في سياق هذه الآية

قال الرازي: فَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ أَنَّهُ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ قَبْلَ أَنْ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْزَلَهُمَا هُدًى لِلنَّاسِ(٣١).

قال البقاعي: ولما كان من معنى القيوم أنه المدبر للمصالح اتصل به الإعلام بتنزيل ما يتضمن ذلك، وهو الكتاب المذكور في قوله: ﴿بما أنزل إليه من ربه﴾ (٣٢) والكتب المذكورة في أول البقرة في قوله: ﴿بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾(٣٣) وفي آخرها بقوله ﴿وكتبه ورسله﴾(٣٤) التي من جملتها التوراة والإنجيل اللذان فيهما الآصار المرفوعة عنا (٣٥).

أثر السياق.

٤. السياق في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٣٦)

ذكر الدكتور طنطاوي السياق في هذه الآية مبينا أيضا بعض مظاهر فضله ورحمته فقال: ثم أخبر- سبحانه- عن بعض الكتب الأخرى التي أنزلها فقال: وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ(٣٧).

وقد وافق الدكتور طنطاوي عدداً من المفسرين في بيان هذا السياق، وإن كان هناك اختلاف يسير في العبارة إلا أن الجميع متفقون في المعنى نفسه.

أقوال العلماء في سياق هذه الآية

قال القرطبي : فَرَدَّ هَذَا الْعَامَّ إِلَى ذَلِكَ الْخَاصِّ. وَ" هُدًى" فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ. وَ (الْفُرْقانَ) الْقُرْآنُ(٣٨).

يقول الطاهر بن عاشور: اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ مُمَهِّدٌ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِأَنَّ نَفْسَ السَّامِعِ تَتَطَلَّعُ إِلَى مَعْرِفَةِ عَاقِبَةِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا هَذَا التَّنْزِيلَ. وَالِانْتِقَامُ: الْعِقَابُ عَلَى الِاعْتِدَاءِ

بِغَضَبٍ، وَلِذَلِكَ قِيلَ لِلْكَارِهِ: نَاقِمٌ. وَجِيءَ فِي هَذَا الْوَصْفِ بِكَلِمَةِ (ذُو) الدَّالَّةِ عَلَى الْمُلْكِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ انْتِقَامٌ عَنِ اخْتِيَارٍ لِإِقَامَةِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَلَيْسَ هُوَ تَعَالَى مُنْدَفِعًا لِلِانْتِقَامِ بِدَافِعِ الطَّبْعِ أَو الحنق (٣٩).

أثر السياق.

إن من يكفر بالله الحي القيوم وجب عليه العقاب الشديد، والعذاب الشديد يأتي من عزيز منتقم ، فلما تحدثت الآية عن العذاب وقسوته وشدته ناسب ذلك أن يكون سياق الفاصلة وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ"

وجاء السياق أيضا من حيث أن الآية وردت بالتهديد للكافرين، والفاصلة فيها شدة التهديد والانتقام.

٥. السياق في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤٠)

ذكر الدكتور طنطاوي السياق في هذه الآية فقال: بعدما أخبر الله تعالى عن شمول علمه لكل شيء فقال: إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ ساق ما يشهد بشمول قدرته وعلمه فقال: هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. ثم قال: وهذه الآية الكريمة في مقام التعليل للتي قبلها، لأن قبلها بينت أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، إذ هو العليم بما يسره الإنسان من كفر أو إيمان أو غيرهما. وهذه الآية تفيد أنه- سبحانه- يعلم أحوال الإنسان لا بعد استوائه بشرا سويا، بل يعلم أحواله وهو نطفة في الأرحام، بل إنه- سبحانه- ليعلم أحواله قبل أن يكون شيئا مذكورا، فهو- كما يقول القرطبي- العالم بما كان وما يكون وما لا يكون.

ومن كان ذلك شأنه فمن الواجب على الذين أوجدهم- سبحانه- في بطون أمهاتهم، ورباهم ورعاهم وخلقهم خلقا من بعد خلق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا.

وقوله- تعالى- كَيْفَ يَشاءُ إخبار منه- سبحانه- بأن هذا التكوين والتصوير في الأرحام تبع لمشيئته وقدرته وليس خاضعا لقانون الأسباب والمسببات، إذ هو الفعال لما يريد، فمن شاء هدايته هداه، ومن شاء إضلاله أضله (٤١).

وقد وافق الدكتور طنطاوي عدداً من المفسرين في بيان هذا السياق، وإن كان هناك اختلاف يسير في العبارة إلا أن الجميع متفقون في المعنى نفسه.

أقوال العلماء في سياق هذه الآية

قال الرازي: فَكَانَ قَوْلُهُ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ دَالًّا عَلَى كَوْنِهِ قَادِرًا عَلَى كُلِّ الْمُمْكِنَاتِ، وَدَالًّا عَلَى صِحَّةِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ، وَقَادِرٌ عَلَى كُلِّ الْمُمْكِنَاتِ، ثَبَتَ أَنَّهُ قَيُّومُ الْمُحْدَثَاتِ وَالْمُمْكِنَاتِ، فَظَهَرَ أَنَّ هَذَا كَالتَّقْرِيرِ لِمَا ذَكَرَهُ تَعَالَى أَوَّلًا مِنْ أَنَّهُ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَمَنْ تَأَمَّلَ فِي هَذِهِ اللَّطَائِفِ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يُعْقَلُ كَلَامٌ أَكْثَرُ فَائِدَةً، وَلَا أَحْسَنُ تَرْتِيبًا، وَلَا أَكْثَرُ تَأْثِيرًا فِي الْقُلُوبِ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ(٤٢).

وقال الطاهر بن عاشور: اسْتِئْنَافٌ ثَانٍ يُبَيِّنُ شَيْئًا مِنْ مَعْنَى الْقَيُّومِيَّةِ، فَهُوَ كَبَدَلِ الْبَعْضِ مِنَ الْكُلِّ، وَخُصَّ من بَين شؤون الْقَيُّومِيَّةِ تَصْوِيرُ الْبَشَرِ لِأَنَّهُ مِنْ أَعْجَبِ مَظَاهِرِ الْقُدْرَةِ وَلِأَنَّ فِيهِ تَعْرِيضًا بِالرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى فِي اعْتِقَادهم إلاهية عِيسَى مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللَّهَ صَوَّرَهُ بِكَيْفِيَّةٍ غَيْرِ مُعْتَادَةٍ فَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْكَيْفِيَّاتِ الْعَارِضَةَ لِلْمَوْجُودَاتِ كُلَّهَا مِنْ صُنْعِ اللَّهِ وَتَصْوِيرِهِ: سَوَاءٌ الْمُعْتَادُ، وَغَيْرُ الْمُعْتَادِ. (٤٣)

وقال رشيد رضا: وَكَأَنَّ هَذَا الِاسْتِئْنَافَ الْبَيَانِيَّ دَلِيلٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ، ثُمَّ اسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِاسْتِئْنَافٍ مِنْهُ عَلَى سَبِيلِ الِالْتِفَاتِ فَقَالَ: هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ الْأَرْحَامُ . (٤٤)

أثر السياق.

إن الاختيار المطلق من صفات العزة والحكمة، فذكرت الآية أن الله هو الذي يخلق الإنسان ويصوره في الأرحام كيف يشاء، وذلك لحكمة هو وحده العالم بها، واقتضت حكمته وعزته ذلك، ولما كان التصوير في الأرحام بعيدا عن المشاهدة ، فجاء السياق أن الذي يتولى الخلق لا يكون إلا من كان عزيزا مطلق العزة ، حكيما في تصريف شئون عباده.

٦. السياق في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾. (٤٥)

ذكر الدكتور طنطاوي السياق في هذه الآية فقال: وبعد أن أقام– سبحانه– الأدلة الواضحة على أنه هو المستحق للعبادة، عقب ذلك ببيان أن القرآن مشتمل على المحكم والمتشابه، وبيان موقف الناس منهما، وكأنه يقول" الله– عز وجل– الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، والذي أنزل الكتب السماوية لهداية الناس، والذي صورهم في الأرحام كيف يشاء، وهو الذي أنزل عليك–

يا محمد- هذا الكتاب الكريم المعجز العظيم الشأن، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، وقد اقتضت حكمة الله- تعالى- أن يجعل هذا الكتاب مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ أى واضحات الدلالة، محكمات التراكيب، جليات المعاني، متقنات النظم والتعبير حاويات لكل ما يسعد الناس في معاشهم ومعادهم، بينات لا التباس فيها ولا اشتباه(٤٦).

وقد وافق الدكتور طنطاوي عدداً من المفسرين في بيان هذا السياق، وإن كان هناك اختلاف يسير في العبارة إلا أن الجميع متفقون في المعنى نفسه.

أقوال العلماء في سياق هذه الآية

قال الطاهر بن عاشور: ((تفصيل لإجمال اقتضاه الكلام السابق؛ لأنه لما قسم الكتاب إلى محكم ومتشابه، وكان ذلك التقسيم باعتبار دلالة الألفاظ على المعاني؛ تشوفت النفس إلى معرفة تلقّي الناس للمتشابه، أما المحكم فتلقّي الناس له على طريقة واحدة، فلا حاجة إلى تفصيل فيه))٠ (٤٧)

وقد وافق الرازي في بيان السياق هذه الآية لما قبلها، حيث قال: ((اعلم أنه تعالى لما بين أن الكتاب ينقسم إلى قسمين، منه محكم، ومنه متشابه؛ بين أن أهل الزيغ لا يتمسكون إلا بالمتشابه))٠ (٤٨)

ومن هذا النقل يتبين أن الله تعالى لما أجمل أقسام الكتاب في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٤٩)، بين بعده موقف الناس من المتشابه، فهو تفصيلٌ لما أُجمل.

وقال رشيد رضا: وَقَوْلُهُ: إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ رَدٌّ لِاسْتِدْلَالِهِمْ عَلَى أُلُوهِيَّةِ عِيسَى بِإِخْبَارِهِ عَنْ بَعْضِ الْمُغَيَّبَاتِ، فَهُوَ يُثْبِتُ أَنَّ الْإِلَهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مُطْلَقًا سَوَاءٌ كَانَ فِي هَذَا الْعَالَمِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْعَوَالِمِ السَّمَاوِيَّةِ، وَعِيسَى لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ إِلَخْ رَدٌّ لِشُبْهَتِهِمْ فِي وِلَادَةِ عِيسَى مِنْ غَيْرِ أَبٍ، أَيِ الْوِلَادَةُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى أُلُوهِيَّةٍ، فَالْمَخْلُوقُ عَبْدٌ كَيْفَمَا خُلِقَ، وَإِنَّمَا الْإِلَهُ هُوَ الْخَالِقُ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ، وَعِيسَى لَمْ يُصَوِّرْ أَحَدًا فِي رَحِمِ أُمِّهِ ؛ وَلِذَلِكَ صَرَّحَ بَعْدَ هَذَا بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَبِوَصْفِهِ – تَعَالَى – بِالْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ ، أَقُولُ: وَلَا يَخْفَى مَا فِي ذِكْرِ الْأَرْحَامِ مِنَ التَّعْرِيضِ بِأَنَّ عِيسَى تَكَوَّنَ وَصُوِّرَ فِي الرَّحِمِ كَغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ

مُتَشَابِهَاتٌ) ، قَالَ الْأُسْتَاذُ: وَهَذَا رَدٌّ لِاسْتِدْلَالِهِمْ بِبَعْضِ آيَاتِ الْقُرْآنِ عَلَى تَمْيِيزِ عِيسَى عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ ; إِذْ وَرَدَ فِيهِ أَنَّهُ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ. فَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ الَّتِي اشْتَبَهَ عَلَيْكُمْ مَعْنَاهَا حَتَّى حَاوَلْتُمْ جَعْلَهَا نَاقِضَةً لِلْآيَاتِ الْمُحْكَمَةِ فِي تَوْحِيدِ اللهِ وَتَنْزِيهِهِ(٥٠).

أثر السياق:

بينت الآية قسمي القرآن المنزل من محكم ومتشابه ، وذمت أصحاب العقائد الفاسدة ووضحت موقف الراسخين في العلم بكتاب الله، وناسب ذلك أن يكون سياق الفاصلة أن يكون الذي يقرأ القرآن المنزل هم أولوا الألباب ، والذين في قلوبهم زيغ ليسوا من أصحاب العقول السليمة ولا القلوب المؤمنة، والذين يعلمون تأويله هم أصحاب الألباب ، والراسخون في العلم هم أصحاب ألباب.

ولهذا ناسب أن يكون سياق الفاصلة في مدح كل ما تقدم ، وذمت بمعناه المضاد الذين في قلوبهم زيغ لأنهم ليسوا من أصاب الألباب.

وجاء سياق الفاصلة بأسلوب الاستثناء لتقصر وتحصر التذكر في أصحاب العقول فقط دون غيرهم، وعلى هذا ناسب أن يون سياق الفاصلة بعد تمهيد لها متمكنة في مكانها.

ومن خلال ما سبق بيانه يتضح موقف أهل الزيغ والضلال من الآيات المتشابهات، وغرضهم المتمثل في إرادة الفتنة بتأويل تلك الآيات بغير ما أراده الله تعالى.

٧. السياق في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٥١)

ذكر الدكتور طنطاوي السياق في هذه الآية فقال: وبعد أن بين- سبحانه- موقف الناس من محكم القرآن ومتشابهه، شرع في بيان ما يتضرع به المؤمنون الصادقون الذين يؤمنون بكل ما أنزله الله- تعالى- فقال: رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ، رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ، والمعنى: نسألك يا ربنا ونضرع إليك ألا تميل قلوبنا عن الهدى بعد إذ ثبتنا عليه ومكنتنا منه. وأن تباعد بيننا وبين الزيغ الذي لا يرضيك. وبين الضلال الذي يفسد القلوب، ويعمى البصائر. وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً أى وامنحنا من عندك ومن جهتك إنعاما وإحسانا تشرح بهما صدورنا. وتصلح بهما أحوالنا إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ لا غيرك(٥٢).

وقد وافق الدكتور طنطاوي عدداً من المفسرين في بيان هذا السياق، وإن كان هناك اختلاف يسير في العبارة إلا أن الجميع متفقون في المعنى نفسه.

أقوال العلماء في سياق هذه الآية

قال الرازي: رَبَّنا لَا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)

وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا حَكَى عَنِ الرَّاسِخِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ حَكَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: رَبَّنا لَا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا وَحَذْفُ (يَقُولُونَ) لِدَلَالَةِ الْأَوَّلِ عَلَيْهِ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا مَا خَلَقْتَ هَذا باطِلًا (٥٣)

وقال البقاعي: ولما كان هذا الأمر نبوة ثم خلافة ثم ملكاً فانتظم بما تقدم من أول السورة أمر النبوة في التنزيل والإنزال، وأمر الخلافة في ذكر الراسخين في العلم الذين يقولون:

{ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا} (٥٤)

وقال الطاهر بن عاشور: دُعَاءٌ علّمه النبيء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَعْلِيمًا لِلْأُمَّةِ: لِأَنَّ الْمَوْقِعَ الْمَحْكِيَّ مَوْقِعُ عِبْرَةٍ وَمَثَارٍ لِهَوَاجِسِ الْخَوْفِ مِنْ سُوءِ الْمَصِيرِ إِلَى حَالِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَمَا هُمْ إِلَّا مِنْ عُقَلَاءِ الْبَشَرِ، لَا تَفَاوُتَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ، وَلَا فِي سَلَامَةِ الْعُقُولِ وَالْمَشَاعِرِ، فَمَا كَانَ ضلالهم إلّا عَن حِرْمَانِهِمُ التَّوْفِيقَ، وَاللُّطْفَ، وَوَسَائِلَ الِاهْتِدَاءِ. (٥٥)

وقال رشيد رضا: لَمَّا كَانَ الْمُتَشَابِهُ مَزَلَّةَ الْأَقْدَامِ وَمَدْرَجَةَ الزَّائِغِينَ إِلَى الْفِتْنَةِ وَصَلَ الرَّاسِخُونَ الْإِقْرَارَ بِالْإِيمَانِ بِهِ بِالدُّعَاءِ بِالْحِفْظِ مِنَ الزَّيْغِ بَعْدَ الْهِدَايَةِ، فَإِنَّهُمْ لِرُسُوخِهِمْ فِي الْعِلْمِ يَعْرِفُونَ ضَعْفَ الْبَشَرِ وَكَوْنَهُمْ عُرْضَةً لِلتَّقَلُّبِ وَالنِّسْيَانِ وَالذُّهُولِ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّ قُدْرَةَ اللهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَعِلْمَهُ لَا يُحَاطُ بِهِ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَيَخَافُونَ أَنْ يُسْتَزَلُّوا فَيَقَعُوا فِي الْخَطَأِ وَالْخَطَأُ فِي هَذَا الْمَقَامِ قَرِينُ الْخَطَرِ، وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ بَعْدَ بَذْلِ جُهْدِهِ فِي إِحْكَامِ الْعِلْمِ فِي مَسَائِلِ الِاعْتِقَادِ وَإِحْكَامِ الْعَمَلِ بِحُسْنِ الِاهْتِدَاءِ إِلَّا اللُّجْأُ إِلَى اللهِ – تَعَالَى – بِأَنْ يَحْفَظَهُ مِنَ الزَّيْغِ الْعَارِضِ، وَيَهَبَهُ الثَّبَاتَ عَلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ، وَالِاسْتِقَامَةَ عَلَى الطَّرِيقَةِ، فَالرَّحْمَةُ فِي هَذَا الْمَقَامِ هِيَ الثَّبَاتُ وَالِاسْتِقَامَةُ وَاخْتَارَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ. (٥٦).

أثر السياق.

بعد أن دعا المؤمنون ربهم بأن لا يزيغ قلوبهم وأن يهديهم وأن يهب إليهم الرحمة، ناسب أن يكون سياق فاصلة ذلك كله قول الله تعالى" إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ وهذا على لسان المؤمنين المتضرعين له بأن يهبهم الرحمة، والتعليل في ذلك إنك أنت الوهاب.

وناسب سياق الآية أيضا أن تكون الفاصلة إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ لأن الوهاب هو الذي يهبهم الهداية ، وهو الذي يهبهم الرحمة ، فهي عنده، جاء في الحديث " إن قلوب بني آدم كلها بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء" (٥٧) .

الخاتمة

الحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه يصل المرءُ إلى أسمى الغايات، والشكر له ليلَ نهار على ما أنعم به وتفضلَ وأعانَ، حمداً يليق بجلاله تعالى ، أما بعد:

فلقد قضيت شهوراً مطَّلعاً ومتأملاً ودارساً لسياق الآيات القرآنية، مستهدفًا السياق في التفسير الوسيط للدكتور طنطاوي من خلال آل عمران، وقد ظهرت لي من خلال هذا البحث نتائج مهمة، فكانت كالنتيجة للمقدمة، ومن أهم تلك النتائج:

١- إن علم سياق الآيات القرآنية علم ذو وجوه إعجازية وبيانية وبلاغية متعددة.

٢- إن نشأة علم سياق الآيات القرآنية وربط الآيات ببعضها كان مطَبقًا منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم.

٣- إن استنباط سياق الآيات القرآنية يعتمد على التأمل والفكر مع ربط ذلك بمحور السورة الرئيس، وأغراضها المختلفة، مع عدمِ إغفال النظر إلى سبب النزول.

٤- إن سياق الآيات موجود لا محالة، وإنما قد تظهر تارةً، وقد تخفى تارةً أخرى، فإذا لم تظهر للمفسر؛ لا ينبغي له التكلف في طلبها، فالتكلف في ذلك أمر غير محمود.

٥- إن العمل على إظهار سياق الآيات القرآنية وإبرازها فيه رد قاطع على كلِّ من يشكك في ترابط القرآن الكريم من المستشرقين وغيرهم.

٦- إن الآية قد يكون لها أكثر من مناسبة من أوجه مختلفة.

٧- إن هناك ارتباطًا وثيقًا بين اسم السورة وبين أهم أغراضها.

٨- إن الدكتور سيد طنطاوي كان علماً مبرزاً وذا باع في علم سياق الآيات القرآنية.

٩- إن الدكتور سيد طنطاوي كان معتدلاً في طلب السياق بين الآيات، ولم يتكلف إلا في مواضع نادرة جِداً.

١٠- إن الدكتور سيد طنطاوي يشير إلى السياق بين الآيات والمقاطع وفي أجزاء الآية الواحدة، وقد يشير إلى السياق بين السور، كونه يرى أن ذلك مما لا حاجة إليه.

١١- إن هناك أثراً يظهر في كل سياق، وهذا يزيد من وضوح غرض الآية ومقصودها.

هذا وأسأل الله الكريم، رب العرش العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به كل مطَّلعٍ وباحث.

■ التوصيات:

يوصي الباحث بما يأتي:-

١- أن تكون هناك دراسة مستقلة تقتصر على ما تفرد به الدكتور سيد طنطاوي في تفسيره الوسيط .

٢- قيام الجامعات ومراكز البحوث العلمية بتشجيع المتخصصين على القيام بإعداد بحوث جزئية في علم السياق القرآني، تتحدث عن كل نوع على حدة، وتستوعب جميع أمثلتها في القرآن الكريم.

٣- ترجمة بعض تلك البحوث إلى لغات أجنبية - خصوصاً التي يسهل على غير العرب إدراكها وفهمها .

٤- الاهتمام بهذا العلم في أقسام التفسير في الكليات.

الهوامش:

١() سورة ص آية ٢٩

٢() سورة النساء الآيتان ٨٢-٨٣

٣() البرهان في علوم القرآن ، للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط : الأولى ، ١٩٥٧ م)، (١٥٥/٢)

٤() تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للسعدى، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، ط : الأولى ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠م)، (١٨٩/١)

٥() انظر: مجموع الفتاوى ، لابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ،١٤١٦هـ /١٩٩٥م)، (٣٦٣/١٣)

٦() البحر المحيط في أصول الفقه ، للزركشي، دار الكتبي ، ط: الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م)، (٦/٨)

٧() ينقسم إلى: تام، وناقص. فالتام: إثبات الحكم في جزئي لثبوته في الكلي على الاستغراق. وهذا هو القياس المنطقي المستعمل في العقليات. وهو حجة بلا خلاف. ومثاله: كل صلاة فإما أن تكون مفروضة أو نافلة، وأيهما كان فلا بد وأن تكون مع الطهارة. فكل صلاة فلا بد وأن تكون مع طهارة. وهو يفيد القطع، لأن الحكم إذا ثبت لكل فرد من أفراد شيء على التفصيل فهو لا محالة ثابت لكل أفراده على الإجمال. والناقص: إثبات الحكم في كلي لثبوته في أكثر جزئياته من غير احتياج إلى جامع. وهو المسمى في اصطلاح الفقهاء بـ (الأعم الأغلب) . وهذا النوع اختلف فيه، والأصح أنه يفيد الظن الغالب، ولا يفيد القطع، لاحتمال تخلف بعض الجزئيات عن الحكم، كما يقال: التمساح يحرك الفك الأعلى عند المضغ. فإنه يخالف سائر الحيوانات في تحريكها الأسفل.(انظر : المرجع السابق(٦٧/٨).

٨() تهذيب الأسماء واللغات ، للنووي، دار الكتب العلمية ، بيروت (د ط) (د ت)، (١٥٨/٤).

٩( )أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي اللغوي؛ كان إماماً في علوم شتى، وخصوصاً اللغة فإنه أتقنها، وألف كتابه المجمل في اللغة، وهو على اختصاره جمع شيئاً كثيراً، وله كتاب حلية الفقهاء، وله رسائل أنيقة، ومسائل في اللغة، و (الصاحبيّ) في علم العربية، ألفه لخزانة الصاحب ابن عباد، و (جامع التأويل) في تفسير القرآن، و (النيروز) في نوادر المخطوطات، وغيرها، قال الذهبي: مات سنة ٣٩٥ هـ بالري، وهو أصح ما قيل في وفاته. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان(١١٨/١-١١٩) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٦٠/١-٦١)، و بغية الوعاة للسيوطي(٣٥٢/١) ، والأعلام للزركلي(١٩٣/١)

١٠( )معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٣ /١١٧)

١١( )الحسين بن محمد بن المفضل، الإمام أبو القاسم الراغب الأصفهاني أديب، من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي ،له "التفسير الكبير". وله "مفردات القرآن" لا نظير له في معناها. وله "الذريعة إلى أسرار الشريعة" و"المحاضرات و"المقامات" وغيرها . توفى سنة ٥٠٢ هـ، انظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة لمجد الدين الفيروز أبادى(١٢٢) والأعلام للزركلي (٢٥٥/٢)

١٢( )المفردات في غريب القرآن (٤٣٦/١) للراغب الأصفهاني تحقيق: صفوان عدنان الداودي/دار القلم ،الدار الشامية– بيروت، ط: الأولى ١٤١٢هـ

١٣( )ابن دقيق العيد الإمام الفقيه المجتهد المحدث الحافظ تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري المنفلوطي الصعيدي المالكي والشافعي, ولد في شعبان سنة ٦٢٥هـ بقرب ينبع من الحجاز، صنف "شرح العمدة" وكتاب "الإلمام", وعمل "كتاب الإمام في الأحكام" ولو كمل تصنيفه وتبييضه لجاء في خمسة عشر مجلدًا، وعمل كتابًا في علوم الحديث، وكان من أذكياء زمانه واسع العلم كثير الكتب مديمًا للسهر مكبًّا على الاشتغال ساكنًا وقورًا ورعًا قل أن ترى العيون مثله. توفى سنة٧٠٢هـ (انظر تذكرة الحفاظ للذهبي(١٨١/٤–١٨٣) ، فوات الوفيات محمد بن شاكر(٤٤٢/٣–٤٤٣)، الأعلام للزركلي(٢٨٣/٦)

١٤( )إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد(١٩/٢) تحقيق : محمد حامد ، ط: السنة المحمدية ١٩٥٣م

١٥( )مُحَمَّد بن عبد الله بن بَهادر الزَّرْكَشِيّ الْموصِلِي الشَّافِعِي بدر الدّين ولد فِي سنة٧٤٥هـ وَألف تصانيف كَثِيرَة فِي عدَّة فنون ، وَهُوَ عَالم فِي الحَدِيث وَالتَّفْسِير وَجَمِيع الْعُلُوم وَمن مصنفاته شرح البُخَارِيّ والتنقيح على البُخَارِيّ وَشرح التَّنْبِيه والبرهان فِي عُلُوم الْقُرْآن وَتَخْرِيج أَحَادِيث الرَّافِعِيّ وَتَفْسِير الْقُرْآن الْعَظِيم وصل إِلَى سُورَة مَرْيَم وَكَانَت وَفَاته فِي سنة ٧٤٩هـ (انظر: الدرر الكامنة(١٣٤/٥–١٣٥)، طبقات المفسرين للأدنوي(ص٣٠٢)

١٦( )البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣١٧/١) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار إحياء الكتب العربية ، ط: الأولى، ١٩٥٧ م

١٧( )الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (٢٢٧/٤)

١٨( )سورة آل عمران، الآية (١).

١٩( )انظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى (١٩٩٧م)، (١٨/٢).

٢٠( )المبرد: هو محمد بن يزيد الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد، إمام العربية في زمانه (ت ٢٨٦ هـ)، وقيل (٢٨٥ هـ)، ينظر: طبقات النحاة واللغويين، تقي الدين ابن قاضي شهبة (ص:٢٨٠)؛ وفيات الأعيان / (٣١٣/٤)؛ إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي (٢٤١/٣).

٢١( )انظر: مفاتيح الغيب، الرازي (٦/١).

٢٢( )انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (١٤٦/٣)٠

٢٣( )قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الم أَنَا اللَّهُ أَعْلَمُ، وَفِي المص أَنَا اللَّهُ أَفْصِلُ، وَفِي الر أَنَا اللَّهُ أَرَى، لم اعثر على حكم لهذا الأثر؛ لكني وجدته في تفسير ابن جرير الطبري ٦٧/١ و٦٨ وابن أبي حاتم ٣٢/١ ، والرازي ٢٥٣/٢ ، والبحر المحيط ١٥٧/١ .

٢٤( )انظر : تفسير المنار (١٠٤/١)

٢٥( )سورة آل عمران، الآية (٢).

٢٦( )انظر: مفاتح الغيب(١٢٩/٧)

٢٧(نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهر، (١٩٨/٤)

٢٨( )انظر: التحرير والتنوير (١٤٧/٣)

٢٩( )سورة آل عمران، الآية (٣).

٣٠( )انظر: التفسير الوسيط لطنطاوي(١٩/٢)

٣١( )انظر: تفسير مفاتيح الغيب (١٣٢/٧)

٣٢( )سورة البقرة، الآية (٢٨٥)

٣٣( )سورة البقرة، الآية (٤)

٣٤( )سورة البقرة، الآية (٢٨٥)

٣٥( )انظر: مصاعد النظر، البقاعي(٢٠٥/٤)

٣٦( )سورة آل عمران، الآية (٤)"

٣٧( )انظر: التفسير الوسيط لطنطاوي (٢١/٢)

٣٨( )انظر: تفسير القرطبي، (٦/٤)

٣٩( )انظر :التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ (١٥١/٣).

٤٠( )سورة آل عمران، الآية (٦)

٤١( )انظر: التفسير الوسيط لطنطاوي (٢٥/٢)

٤٢( )انظر: مفاتيح الغيب(١٣٥/٧)

٤٣( )انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (١٥١/٣)

٤٤( )انظر: تفسير المنار، رشيد رضا(١٣٤/٣)

٤٥( )سورة آل عمران، الآية (٧).

٤٦( )انظر: التفسير الوسيط لطنطاوي (٢٨/٢)

٤٧( )انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (١٦١/٣)٠

٤٨( )انظر: مفاتيح الغيب، أبو حيان (١٧٣/٧).

٤٩( )سورة آل عمران، الآية (٧)٠

٥٠( )انظر: تفسير المنار، (١٣٤/٣)٠

٥١( )سورة آل عمران، الآية (٨)

٥٢( )انظر: التفسير الوسيط لطنطاوي (٣٥/٢)

٥٣( )سورة آلِ عِمْرَانَ، الآية (١٩١)، وانظر: مفاتيح الغيب ، الرازي (١٤٨/٧)

٥٤( )سورة آلِ عِمْرَانَ، الآية (٨)، انظر: نظم الد، البقاعي (٣٠٩/٤)

٥٥( )انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور(١٦٩/٣)

٥٦( )انظر: تفسير المنار، رشيد رضا(١٨٩/٣)

٥٧( )رواه مسلم في كتاب القدر، باب تصريف الله القلوب كيف يشاء، حديث رقم (٢٦٥٤)، (٢٠٤٥/٤).